﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾

[فصلت: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفسيرُ كيفيَّةِ خَلقِ السَّماء بعد إبهامِه، وتبيينُه بعد إجمالِه

بعد أن شرعتِ الآية السّابقة في الكلام عن خلق السَّموات، وكان الكلام فيها - أي: في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت: 11] - مُبهمًا مجملًا، جاءت هذه الآية: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾؛ لتفسِّرَ هذا المبهمَ، وتفصِّلَ هذا المُجمَل؛ لا أنَّ هذا القضاءَ فعلٌ مترتِّب على تكوينها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾: (قضي) أصل يَدُلُّ عَلى إحكام أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لجِهَتِه، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، أي: أحْكَمَ خَلْقَهُنَّ[2]، والقَضاءُ: فصل الأمر، قولًا كان كما في قوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، أي: أمر بذلك أو فعلًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ [غافر: 20]، والمراد بالقضاء هنا كما مرَّ: الإحكام والإتقان.

2) ﴿وَأَوۡحَىٰ﴾: (وحي) أصلٌ يدلُّ على إلقاء عِلمٍ في إخفاء أو غيره إلى غيرك، والوحي: الإشارة السَّريعة، ولتضمُّن السُّرعة قيل: أمرٌ وحْيٌ[3]، والوحي يُطلَق، ويراد به: الكتاب والرِّسالة، ويطلق أيضًا على ملك الوحي جبريلَ ﷺ، باعتباره المَلَك المكلَّف به، والوحي أيضًا: عبارةٌ عن التَّكوينِ كالأمر، وهو المعنى الملائمُ لقوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وحى).

﴿فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾، أي: (خلقَ في كلٍّ مِنْها ما فيها من الملائكة والنَّيِّراتِ وغيرِ ذلك ممّا لا يعلمه إلّا اللّه تعالى)[1].

3) ﴿أَمۡرَهَاۚ﴾: (أمر) أصولٌ خمسة: الشَّأنُ، وضِدُّ النَّهي، والنَّماء والبَرَكَة، والمَعلَم، والعَجَب[2]، وجمع أمرٍ: أُمور، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]، ويقال للإبداع: أمر، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]، ويختصُّ ذلك باللّه تعالى دون الخلائق، وقد حُمِل على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ [فصلت: 12][3].

4) ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: (صبح) أصلٌ واحد مطَّرِد، وهو لون من الألوان، وأصله الحُمرة، وسُمّي الصُّبحُ صُبحًا لحُمرته، كما سُمّي المصباح مصباحًا لحمرته؛ ولذلك يقال: وجهٌ صبيح، والصَّباح: نور النَّهار[4]، والمِصْباحُ: مقرُّ السِّراج، والمَصابيحُ: أعلام الكواكب[5]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5]، وقال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، والمراد: النُّجوم والكواكب.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تفصيلُ أطوار خلقِ السَّماوات السَّبع، وإظهارُ قدرةِ الباري بذلك

الآيةُ شروعٌ في تفصيل كيفيَّة بناء السَّماوات السَّبع، فيَصِف اللّهُ نفسَه العليَّةَ بأنَّه أتمَّ خَلْقَ السَّماوات سبعًا في يومَين، وأوجد في كلِّ سماءٍ ما أُعدَّت له، واقتضَتْه حكمتُه، وزيَّن السَّماء القريبةَ من الأرض بالنُّجوم المُنيرة كالمصابيح، وحفظ بهنَّ أخبارَ الملأِ الأعلى من استماع الشَّياطين لها، وختم الآيةَ ببيان أنَّ ذلك الخلقَ المُتقَن إنَّما هو تدبيرُ العزيزِ الَّذي لا يُغلب، المحيطِ علمُه بكلِّ شيء[6].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5، 6.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(3) الراغب، المفردات: (أمر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبح).
(5) الراغب، المفردات: (صبح).
(6) جماعة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 708.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطف الآية بالفاء:

أمْـرُ السَّماوات بالانـقـياد بعد إتـمـامِ خلقِها وتكوينِها

الفاء عاطفةٌ مرتِّبةٌ ما بعدها - وهي جملة القضاء: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ - على قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا﴾ [فصلت: 11]، وهو ترتيبٌ في الذِّكر[1] لا في الوجود؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ [فصلت: 11]، هو في الوجود بعدَ خلق السَّماوات والأرض، لا قبلَه، وهذا التَّرتيبُ يُفهَم بتقدير لفظٍ متروكٍ يدلُّ عليه الظّاهر، كأنَّه قيل: (فأوجدها، وأتقنها، وأكمل أمورها، وحينئذٍ قال لها وللأرض: ائتيا طَوْعًا أو كَرْهًا)[2]، فالتَّرتيب الَّذي دلَّتْ عليه الفاء هو من باب ترتيب التَّفسيرِ على المفسَّر، والتَّفصيلِ على المجمل، والتَّمييزِ على المُبهَم، لا من باب ترتيب اللّاحِق على السّابِق[3].

سرُّ إيثارِ فعل القضاء مادَّةً وصيغةً:

خلقَ اللهُ تعالى السَّماوات على أبـــدعِ وجـــهٍ، وأحكمِ نظام

الفعل (قضى) في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ يفيد معنى الخلق على أتمِّ وجهٍ وأبدعِه، كما في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، أي: مُبدِعُهما، فالقضاء هو الإيجاد الإبداعيُّ؛ لأنَّ فيه معنى الإتمام والحُكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع[4]، أي: "(خلقهنَّ خلقًا إبداعيًّا، وأتقنَ أمرَهنَّ حسبما تقتضيهِ الحكمة)"[5]، وأوثر التَّعبير بالفعل (قضى) ماضيًا؛ لتحقُّق حصول خلقها على أكملِ وجهٍ شاءَ اللّه لها أن تكون عليه.

عَودُ الضَّمير في فِعل القضاء:

خلق الله تعالى الـسَّـمـاوات عـلى أبـدع وجه وأحكم نظام

الفعل (قضى) في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ يفيد

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 135.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 7.
(3) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 348.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 248.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5.

معنى الخلق على أتمِّ وجه وأبدعه؛ لقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، أي: مبدعهما، والمعنى: "خلقهنَّ خلقًا إبداعيًّا، وأتقنَ أمرَهنَّ حسبما تقتضيهِ الحكمة"[1]، فالقضاء هو الإيجاد الإبداعيُّ؛ لأنَّ فيه معنى الإتمام والحكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع[2].

ضمير المفعولِ المؤنَّث في فعل القضاء من قول الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ يعود إلى (السَّماوات) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: 29] على اعتبار تأنيث لفظها، وهو من التَّفنُّن، وإنَّما جُمع باعتبار المعنى الَّذي صارت إليه، وهو أنَّها سبع سماوات، أو لأنَّ لفظ السَّماء مُرادٌ به الجنس، فجاز كونُ الضَّمير جمعًا[3]، ويجوز أيضًا أن يكون الضَّميرُ مُبهَمًا، مفسَّرًا بسبع سماوات[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالقيد:

خلقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّة أيّام

قُيِّد القضاءُ في قول الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ بشِبهِ الجملة: ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، أي: في يومينِ من الأيّام السِّتة الَّتي تمَّ فيها خلْقُ السَّماوات والأرض وما بينهما، وقد نُصَّ على تمام العدد في كثيرٍ من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [الأعراف: 54].

توجيهُ العطف بالواو:

خلْقُ السَّماوات وإيحاءُ أمرِها خَصَّا في اليومَينِ المذكورين

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ عاطفةٌ جملةَ الوحيِ على جملة القضاء: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، بقصد الجمع بين الخلق والتَّقدير في نفس اليومين، والمعنى: (فقضاهنَّ وأوحى في كلِّ واحدةٍ منها أمرَها، بأن خَلقَ في كلٍّ منها ما فيها من

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 248.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 135.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 190، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 248.

الملائكة والنَّيِّراتِ وغيرِ ذلك ممّا لا يعلمه إلّا الله تعالى)، فالوحيُ عبارةٌ عن التَّكوينِ، كالأمر، وهو مقيَّدٌ بما قُيِّد به المعطوفُ عليه من الوقت، وهما اليومان[1].

دلالةُ فعلِ الوحي مادَّةً وصيغةً:

أوحى الله إلى السَّماء تقاديرَ كونِها، وأوحى فيها بأوامِرِ أهلِها

أصلُ الوحيِ هو إلقاءُ عِلمٍ في خفاءٍ، ويُطلَق على الإشارةِ السَّريعة[2]، وعلى التَّكوين كالأمر[3]، وعلى إلهام الله مخلوقاتِه، وعلى تسخيرِه إيّاها لأمره، وهو في قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ يقع على جميع هذه المعاني من استعمال اللَّفظ في حقيقته ومجازاته: فالله ﷻ أوحى في السَّماوات بتقاديرِ نظمِ جاذبيَّتِها، وتقاديرِ سَيرِ كواكبها، وأوحى فيها بخلق الملائكةِ فيها، وأوحى إلى الملائكة بما يتلقَّونه من الأمر بما يعملون[4]، فقيل في معنى الإيحاء هنا: (ألقى أمرَ السَّماءِ إليها بطريقٍ خفيٍّ، وحَكَمَ بثبوتٍ قويٍّ)[5]، وقيل: (أوحى إلى أهلِ السَّماء بأوامرِه)[6]، وقيل: (حَمَل السَّماءَ على أمرِها اختيارًا أو طبعًا)، والوحي على التَّقدير الأخير من باب المجاز؛ لأنَّ الوحيَ مستلزِمٌ للحمل عَلى الموحى إليه[7]، فهو مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقة اللُّزوم.

معنى ﴿فِي﴾:

(في) للظَّرفيَّة الحقيقيَّة أو المجازيَّة

حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهي الظَّرفيَّةُ المجازيَّة؛ إن كان المعنى: (ألقى إلى أهل كلِّ سماء أوامرَه، وكلَّفهم بما يليق بهم من التَّكاليف)[8]، أو

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5، 6.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وحى).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5، 6.
(4) ابن عاشور: 24/ 248.
(5) الشربيني، السراج المنير: 3/ 509.
(6) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 372.
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 68، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 136.
(8) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 317.

هي الظَّرفيَّة الحقيقيَّة؛ إن كان المعنى: (خلقَ في كلٍّ مِنْها ما فيها من الملائكة والنَّيِّراتِ وسائر المخلوقات)[1].

دلالةُ ﴿كُلِّ﴾ مضافًا إلى السَّماء:

في كـلِّ سـماءٍ مـخـلـوقـاتٌ، وتـكـالـيـفُ، ووظائفُ خاصَّةٌ بها

عُبِّر في قول الله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ بـ﴿كُلِّ﴾ مُضافًا إلى السَّماء؛ للدَّلالة على العموم، أي: (أودع في كلِّ سماءٍ من السَّماوات ما شاء سبحانه من مخلوقاتٍ تخصُّها، ومن تكاليفَ موجَّهةٍ إلى أهلها)، فلكلِّ سماءٍ أهلٌ، ووظائفُ، وهذا سرُّ القيد المذكور.

سرُّ تقديم شبه الجملة:

بـيـانُ طـلاقـةِ الـقـدرة الإلهيَّة في كيفيَّة خلق السَّماء

السِّرُّ في تقديم شِبه الجملة: ﴿فِي كُلِّ سَمَآءٍ﴾ على المفعول ﴿أَمۡرَهَاۚ﴾ هو إفادة الاختصاص، أي: اختصاص كلِّ سماءٍ بما أودِعَ فيها من أسرارٍ ومهامَّ وقوًى ومخلوقاتٍ، وأيضًا لإفادةِ الاهتمام بتقديم ذِكر السَّماء؛ لأنَّ مناطَ الحديث هو عن طلاقة القدرة في كيفيَّة خلقها.

نكتةُ التَّعبير بلفظ الأمر:

لـلـه تـعـالى في كلِّ سماءٍ شأنٌ وأوامرُ

المرادُ بالأمر في قول الله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾، هو واحد الأمور، فيكون الأمر بمعنى الشَّأن، أو الإبداع والخلق؛ إذ يقال للإبداع: أمر، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]، أو الأمرُ هنا واحدُ الأوامر، أي: التَّكاليف والتَّوجيهات الإلهيَّة لسكّان هذه السَّماوات.

نكتةُ التَّعبير بلفظ الأمر:

شأنُ كلِّ سماءٍ وأوامرُها تخصُّها دون غيرها

الضَّمير المضافُ إليه الأمرُ في قول الله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ يعود إلى السَّماء، وغرَضُ الإضافة هو إفادة الاختصاص، والمعنى: وخصَّ كلَّ سماءٍ بالأمرِ المضاف إليها)[2]، ففي كلِّ سماءٍ أمرٌ من أوامرِ الله وأمور تخصُّها على الوجه اللّائق بها، كما أراد لها ربُّها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 5، 6.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 549.

دلالةُ واوِ ﴿وَزَيَّنَّا﴾:

الاهتمامُ بالسَّماء الدُّنيا لقربها، ولعِظَم آياتها

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ عاطفةٌ، عطفت الجملةَ بعدها على جملة الوحي: ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾ بمَلحَظ الالتفات[1] من الغَيبة إلى التَّكلُّم، ويحتمل أن تكونَ الواوُ للاستئناف، والجملةُ بعدها مستأنَفة، فتكونَ مفصولةً عن سابقتها، والغرضُ من هذا الاستئناف تخصيصُ السَّماء الدُّنيا بالذِّكر بعد دخولها في عموم السَّماوات؛ إشارةً إلى تشريف الإنسان الموالي لها، وتنبيهًا على ما في هذه السَّماء من الآيات العظيمة[2].

سرُّ إيثارِ فعل التَّزيين:

لفتُ أبصارِ العُقلاء إلى بديعِ صُنع السَّماء

أوثِر التَّعبير بفعل التَّزيين في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، أي: تزيين السَّماء بالنُّجوم والكواكب دون غيرها - كالخلق ونحوه - لأنَّ المقصد هو لفت أنظار المخاطَبين إلى بديع تصويرها وجمالِ نظامها، وأمّا مسألة خلقها؛ فهي داخلة في خلق السَّماء وجزءٌ منها.

غرضُ الإسنادِ إلى ضمير العظمة:

ما يُسنَد إلى العظيمِ عظيمٌ

أُسنِد التَّزيينُ في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ إلى ضمير العظمة لإبراز مزيد العناية به[3]، وللدَّلالة على عظمة هذا الفعل الَّذي لا يقدِر عليه بهذا الإبداع المُبهِر المُعجِز إلّا العظيمُ، وهو الله تعالى المستحقُّ للتَّوحيد.

بلاغةُ الالتفاتِ:

بديعُ خلقِ السَّماء الدُّنيا محطُّ عنايةٍ ومَثارُ إعجابٍ

في قول الله سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ التفاتٌ إلى التَّكلُّم بعد طريق الغَيبة الَّتي طال استعمالها فيما مضى، والسِّرُّ

(1) صافي، الجدول: 24/ 290.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 157، والشربيني، السراج المنير: 3/ 509.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 538.

في هذا الالتفات – فضلًا عن الغرَض العامِّ لأسلوب الالتفات – هو تطريَة الكلام وتنشيط السّامعين بعدَ طول استعمال طريق الغَيبة ابتداءً من قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 9]، هو إظهارُ العناية بتخصيص هذا الصُّنع الَّذي ينفع النّاسَ دينًا ودُنيا، فذِكرُ خَلْقِ النُّجوم والشُّهُب الدَّقيقة تخصيصٌ من بين عموم قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾؛ فما السَّماء الدُّنيا إلّا مِن جُملة السَّماوات، وما النُّجوم والشُّهب إلّا من جملة أمرها[1].

سرُّ تكرارِ لفظ السَّماء مُفرَدةً مُعَرَّفة:

دنـوُّ السَّـماء الـدُّنـيـا منّـا لمشاهدة دلائلِ القدرة الظّاهرة فيها

السِّرُّ في إظهار اسم السَّماء في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ دون إضماره (وزيَّنّاها)؛ ردًّا على سَبْقِ ذكرها بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾، هو أنَّ السَّماء في سياق الإيحاء مرادٌ بها عمومُ السَّماوات، وأمّا الَّتي في سياق التَّزيين؛ فهي السَّماء الدُّنيا فقط، وهي واحدة من جملة السَّماوات، فيكون من باب ذكر الخاصِّ بعد العامِّ، وسرُّ هذا التَّخصيص بالذِّكر هو كَونُ هذه السَّماء الدُّنيا هي القريبة منّا، المشاهَدة لنا بقبَّتها الزَّرقاء، ومصابيحها النَّيِّرات الَّتي تزيِّن فضاءها.

نكتةُ وصف ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

وُصفتِ السَّماءُ بالدُّنيا لقُربها منها

﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، هي السَّماء الَّتي تعلو هذه الأرضَ، وهي السَّماء الأولى، وفوقَها بقيَّة السَّماوات السَّبع[2]، وكلمة الدُّنيا من الدُّنوِّ بمعنى القرب، ووُصِفت بها السَّماء الأولى لقربها منّا[3] بالمشاهدة والنَّظر – سواءً بالعين المجرَّدة أو المكبِّرات العملاقة – وبإمكانيَّة اختراق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 251.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1295.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 251.

بعض كواكبها بمركَّبات الفضاء، والاطِّلاع على خصائصها فيما هو معروف الآن.

معنى باءِ ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾:

الباءُ في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾؛ للملابسة والإلصاق، أي: (لابَست هذه النُّجومُ والكواكب تزيينَ السَّماء وحِفظَها، وصاحَبتْهما في الخلق).

علَّةُ إيثار لفظ المصابيح:

النُّجوم مصابيحُ تُنيرُ السَّماء

لفظُ المصابيح في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ جمعُ مِصباحٍ، وهو في الأصل ما يوقَد بالنّار في الزَّيت للإضاءة، وهو مشتقٌّ من الصَّباح؛ لأنَّه يُجعَل في ظُلمَة اللَّيل خَلَفًا عن الصَّباح، واستعمالُه هنا من باب الاستعارة، فالمراد بالمصابيحِ في الآية: الشَّمس والقمر والكواكب والنُّجوم، استُعير لها المصابيحُ لِما يبدو من نورها[1]، والاستعارة هنا تصريحيَّة، حُذِفَ فيها المُشَبَّه من النُّجوم والكواكب وصُرِّح بالمُشبَّه به (المصابيح)، ووجه التَّشبيه أنَّها تَظهر ليلًا، فتبدو لسطوع نورها معالِمَ زينةٍ في هذا السَّقف المُطِلِّ على العالَم الأرضيِّ[2].

دلالةُ عطفِ الحِفظِ بالواو:

الحفظُ إتمامٌ للتَّزيين ودوامٌ له

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ عاطفةٌ؛ لإفادة معنى الجمع بين تزيين السَّماء وحِفظِها بوساطة الكواكب، والمراد بالحفظ هنا حِفظُ السَّماء من الشَّياطين، وهو ما تقوم به هذه الأجرامُ من حراسة السَّماء من الشَّياطين؛ إذا أرادوا التَّسَمُّعَ لِما في الملأ الأعلى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: 5][3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 157.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1295.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 38، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1295.

سرُّ التَّعبير بالمفعول المطلق:

تأكيدُ كونِ السَّماء محفوظةً من الشَّياطين بالكواكب

قول الله تعالى: ﴿وَحِفۡظٗاۚ﴾ في الآية الكريمة: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾ مصدرٌ منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ، معطوفٍ على قوله: ﴿وَزَيَّنَّا﴾، والتَّقدير: (وحَفِظْناها بالثَّواقب من الكواكِبِ حِفْظًا)[1]، والغرَض من التَّعبير بالمصدر على الصّورة المذكورة: تأكيدُ كونِ السَّماء محفوظةً من الشَّياطين بواسطة هذه الكواكبِ الَّتي أودع الله تعالى فيها إمكانَ تتبُّع الشَّياطين وحَرقها، ويجوز نصبُ (حفظًا) مفعولًا لأجله على المعنى، والتَّقديرُ: (خلقنا الكواكبَ زينةً وحِفْظًا)، وهو تقديرٌ فيه بُعدٌ وتكلُّف[2].

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

إيجازُ الحَذفِ مع إبداعِ السَّبك

قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾ فيه احتباكٌ، وهو من أنواع الحذف؛ إذ حُذِف فِعلُ الحفظ بدلالة المصدر (حفظًا)، وحُذف مصدر الزّينة بما دلَّ عليه من فعلها (زيّنا)[3]، فحُذِف من كلِّ جملة ما دلَّ عليه المذكورُ في الجملة الأخرى، والتَّقدير: (زيَّنّا السَّماء زينةً، وحفظناها حفظًا).

سرُّ تقديم التَّزيين:

قُدِّم التَّزيينُ على الحفظ في قول الله سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ﴾؛ لأنَّ الحفظَ من جملة التَّزيين، لا سيَّما الحفظ عن الآفات[4].

وجهُ التَّعبير بـ﴿ذَٰلِكَ﴾:

خَلقُ السَّماء والأرض أمرٌ رفيعٌ، وشأنٌ بديعٌ

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة الموضوعِ للبعيد في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ للإشعار بأهمّيَّة المُشار إليه، وهو ما

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 513، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 7.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 513.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 157.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 136.

مضى تفصيلُه، بدءًا من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ [فصلت: 10]، إلى قوله: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾، والمعنى: (ذلك الأمرُ الرَّفيع والشَّأن البديع - الَّذي مضى تفصيله - تقديرُ العزيز العليم)[1].

وَجهُ الإخبار بالمصدر:

التَّقدير في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ مصدرُ (قَدَّرَ) المضاعف؛ إذا جعلَ شيئًا أو أشياءَ على مقدارٍ مُعيَّنٍ مُناسبٍ؛ لما جُعل لأجله[2]، والتَّعبير بالمصدر مفيدٌ للتَّأكيد، فهو تقديرٌ لا يوجَد مثالُه، ولا يُقدر على غراره.

ظهورُ القُدرةِ الرَّبَّانيَّة في التَّقديرات الكونيَّة

دلالةُ تعريف الخَبرِ بالإضافة:

دلَّ تعريف الخبر بالإضافة في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ على الاختصاص، فما يجري من قوانينَ طبيعيَّةٍ في هذا الكون إنَّما هو مِن تقديره سبحانه وحده، وهو تقديرٌ موسومٌ بكمال المُلكِ والقدرة، وتمام العلم والحكمة.

لا قادِرَ على كمال تقدير النّواميس الطَّبيعيَّة إلّا الله تعالى

سرُّ إيثار لفظَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾:

في اختصاص ختم الآية بالاسمين ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ إشارةٌ إلى مناسبة معناهما؛ لوصف نظام سَيرِ الكواكب؛ فالعزَّة تُناسِب تسخيرَ هذه الكواكبِ لِما أراده الله منها، فالعزيز هو الَّذي لا يغالَب، ويَغلِب كلَّ شيء، ويقهره، ويسخِّره؛ والعلمُ يناسب النِّظامَ البديعَ الدَّقيق[3].

اللهُ سبحانه هو الغالب لكلِّ شيءٍ، المحيطُ علمًا بكلِّ شيء

بلاغةُ صيغةِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾:

الاسمانِ الأجَلّانِ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ و﴿ٱلْعَلِيمِ﴾، وردا على طريقة المبالغة في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، فكلاهما على وزن

قهَرَتْ عِزَّتُه كلَّ شيء، وبلَغَ علمُه كلَّ شيء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 157، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 251.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 252، و28/ 315.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 21.

(فَعيل)، إحدى صيَغِ المبالغة، والهدف من ورود الاسمين الجليلين - وكذا سائر أسمائه سبحانه وصفاته - على طريقة المبالغة هو الدَّلالة على التَّناهي في معنى الصِّفة بما يليق بجلاله سبحانه وكمالِه، وعلى كثرةِ متعلِّقاتهما ومفعولاتهما، وهذا هو الشَّأن في توجيه معنى المبالغة في صفات اللّه تعالى[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القضاء والقَدَر والحُكم والأمر:

تأتي مادَّةُ القضاء على معانٍ شتّى: منها القضاء بمعنى الحكم والفصل، ومنها الانقضاء بمعنى الذَّهاب والانتهاء والاستيفاء، فيُقال: قضى الشَّيء يقضي؛ إذا قطعه، وأزاله[2]، وقول اللّه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ هو من القضاء بمعنى الحكم والخلق والتَّقدير.

القضاءُ هو الإرادة الأزليَّة لأشياء، والتَّقديرُ إيجادُها على مُقتضاها

والقَدَر: إيجادُ الأشياءِ على صفةٍ مقصودة، وهو مشتقٌّ من القَدْر، وهو الكمّيَّة المحدَّدة المضبوطة[3]، أو يُقال في تعريف القدَر: تعلُّقُ الإرادة بالأشياء في أوقاتها، وهو تفصيلُ قضاء اللّه السّابقِ في إيجادها في الموادِّ الجزئيَّة المسمّاة بلوح المحو والإثبات[4]، فالقضاء هو الإرادة الأزليَّة المتعلِّقة بالأشياء على ما هي عليه، والقَدَر عبارةٌ عن إيجاده إيّاها على تقديرٍ مخصوص معيَّن[5]، وفقَ الإرادة الأزليَّة الَّتي هي القضاء.

القضاء يُبنى على اليقين، والحُكم على النَّظر في الشَّواهِد

والحكم: هو فَصلٌ الأمر على الأحكام بما يقتضيه العقل والشَّرع؛ فإذا قيل: حكم بالباطل؛ فمعناه أنَّه جعل الباطلَ موضِعَ الحقِّ، ويُستعمل الحكمُ في مواضعَ لا يُستعمل فيها القضاء، كقولك: حُكم هذا كحُكم هذا، أي: هما متماثلان في السَّبب أو العلَّة أو نحو ذلك[6].

(1) الزركشي، البرهان: 2/ 507.
(2) الراغب، المفردات: (تفث).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 42.
(4) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 174.
(5) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 174.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 431.

وبهذا يظهر أنَّ التَّعبير بالقضاء أبلغ من التَّعبير بالحكم؛ لأنَّه يُبنى على اليقين الَّذي يُفضي إلى الفصل التّامِّ، ولذا وصف اللّهُ سبحانه بالحقِّ قضاءَه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [غافر: 20]، بخلاف الحكم فإنَّه يُبنى على النَّظر في الشَّواهد على مقتضى الشَّرع والعقل.

الأمر: هو الشَّأن، وجمعه أُمور، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها[1]، فالتَّعبير الأنسبُ في قول الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ هو التَّعبير بالقضاء؛ لتضمُّنِه معنى الخلق والتَّصيير، ودلالتِه على الاستيفاء.

الأمـــرُ لـفـظٌ عـــامٌّ لجميع الـــشُّـــؤون، والقضاءُ خاصٌّ بـمـا اقـتـضـاه السّياق

التَّزيين والتَّحليَة:

التَّزيين من لفظِ الزّينة، وأصل مادَّته يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيءِ وتَحسينِهِ[2]، وهي ثلاثٌ: زينةٌ نفسيَّة كالعلم والاعتقاداتِ الحسنة، وزينةٌ بدنيَّة كالقوَّة وطول القامة، وزينةٌ خارجيَّة كالمال[3].

التَّحلية نوعٌ من أنواع الزّينة

والتَّحلية لُبسُ الحُليِّ للتَّزيين، كالذَّهب والفضَّة، كقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [الكهف: 31][4]، وهو نوعٌ من الزّينة، فبَين اللَّفظَين – الزّينة والحُليِّ – عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، فكلُّ حُليٍّ زينةٌ، وليس كلُّ زينةٍ حُليًّا.

فالتَّعبير بالتَّزيين في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ هو الأنسب؛ لأنَّه أعمُّ من التَّحلية، فيشملها، ويشمل معها غيرَها من المعاني المضمَّنة فيه كالتَّحسين ونحوه.

(1) الراغب، المفردات: (أمر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(3) الراغب، المفردات: (زين).
(4) الراغب، المفردات: (حلى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"